المحاضرة الثانية:
الرواية

للذاكرة دور كبير في الحفاظ على التجربة الإنسانية، وعلى تنمية الخبرات الّتي تتراكم على مرّ العصور، لاسيّما وأن الإنسان-وهو يواجه ما يواجهه في حياته من تحديات- لا يجد إلاّ ما تسعفه بالذكرة لا سيّما حين تكون جماعية. وعلى هذا الأساس كانت الرواية هي إحدى الوسائل الهامة والناجعة الّتي لجأت إليها الأمم القديمة في فترة من فترات تاريخها لتحفظ بها تراثها حين تعوزها الوسائل الأخرى كالكتابة، فلا تجد سبيلا لحفظ آثارها إلاّ حفظها وتناقلها بين الأجيال مشافهة من خلال وسيلة الرواية.

<u>دور الرواية في التّرث العربي القديم:</u>

كثيرا ما يقف الباحثون في دراساتهم حول موضوع المصادر عند مرحلتي الرواية والتدوين، وذلك للنظر في السياق التاريخي الّذي ظهرت فيه هذه المصادر. ولقد أبنات هذه الدراسات أنّ هذه المصادر لم تظهر فجأة وإنّما كانت ثمرة تحول كبير في الثقافة العربية القديمة. ولقد كانت الرواية هي الوسيلة الأولى الّتي كان يعتمدها العربي في نقل معارفه وثقافاته إلى غيره، حيث "أنّ العرب في الجاهلية لم تكن أمّة كاتبة، وكثير من نوابغ شعرائها لم يكونوا على شيء من القراءة والكتابة"[1].

ويستند المؤرخون في هذا الحكم إلى بعض الروايات الّتي تناقلتها بعض الكتب القديمة، ومن ذلك مثلا قصة طرفة بن العبد وخاله المتلمّس[2]

مراحل تطوّر الرواية الشفوية عند العرب:

لقد كان الشعر هو ديوان العرب، إذ لم يكن لها ديوان غيره. فهو "فخرها العظيم، وقسطاسها المستقيم"[3]. ولذلك فقد أقاموا عنده، فكان علمهم الصحيح، ولم يكن لهم علم أصحّ منه على حدّ قول قال عمر بن الخطّاب- رضي الله عنه. وبناء على ذلك فقد أولى العربي أهمية بالغة لرواية الشعر، وقد تجلى اهتمامه بهذا الأمر بداية من العصر الجاهلي إلى العصر العباسي. ويمكن أن نقسم هذه الفترة الزمنية إلى مرحلتين أساسيتين هما:

---

[1] - محمود أحمد حسن المراغي: دراسات في المكتبة العربية وتدوين التراث، ص14.

[2] - يُروى في شأنهما أنّهما حملا رسالة من عمرو بن هند إلى عامله بالبحرين، وفي الرسالة أمر بقتلهما لأنّهما كانا قد هجواه، ولم يكن كلاهما يعرف القراءة أو الكتابة. وفي الطريق دفع المتلمّس برسالته إلى غلام بالحيرة ليقرأها له، فقال له الغلام: أنت المتلمّس؟ قال: نعم، قال: فالنجاءَ، فقد أمر بقتلك، فألقى المتلمّس الصحيفة في نهر الحيرة، وقال:

ألقيتها بالثنيّ في جنب كافر كذلك أفني كلّ قطّ مضلّل

رضيت لها بالماء لمّا رأيتها يجول بها التيار في كلّ جدول

وأشار المتلمّس على طرفة بالرجوع، فأبى، وسار بصحيفته إلى حيث لاقى مصرعه، أمّا المتلمّس فهرب إلى الشّام، وقال في ذلك: من مُبْلغ الشعـراء عن أخويْهـــمُ خبرا، فتصْدُقَهُمْ بذلك الأنفس

أودى الّذي علق الصحيفة منهما ونجا حـــذارَ حبـائه المتلمّس

[3] - ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ج01، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة- سوريا، ط5 (1401هـ/ 1981م)، ص26

المرحلة الأولى/ مرحلة الحاجة

وهي المرحلة البسيطة والعادية للرواية عند العرب، والّتي كان الأمر منصبا فيها على تناقل الشعر مشافهة فيما بينهم سواء ما تعلق الأمر بأهالي القبائل وسكانها الّذي تفاخروا برواية أشعار نوابغهم أو بالشعراء أنفسهم الذين كانوا قد نهجوا في رواية الشعر منحيين[4]:

أولهما: هو رواية شعر كل شاعر فحل من طرف شاعر ناشئ "فلا تجد شاعرا مجيدا منهم إلا وقد لزم شاعرا آخر لمدة طويلة، وتعلم منه قوانين النظم، واستفاد منه الدربة في أنحاء التصاريف البلاغية"، فلزم أوس بن حجر زهيرٌ، ولزم زهيرا ابنه كعب والحطيئة، وهكذا دواليك.

ثانيهما: هو أن يطلب الشاعر العلوم التي يحتاج إليها في قول الشعر، ويحرص في تحصيلها وأخذها، فالشاعر لا يصير فحلا في قريض الشعر حتى يروي أشعار العرب ويسمع الأخبار، ويتزود بزاد ثقافي يكون له عونا في نظم الشعر، كما يذهب إلى ذلك الأصمعي.

المرحلة الثانية/مرحلة الاحتراف:

ومع مطلع العصر العباسي تنشأ طبقة من الرواة المحترفين الذين يتخذون رواية الشعر الجاهلي عملًا أساسيًّا لهم، وقد كان أغلبهم من البصرة والكوفة. وأهم هؤلاء الرواة أبو عمرو بن العلاء وحماد الراوية وخلف الأحمر ومحمد بن السائب الكلبي والمفضل الضبي والأصمعي وقد استقوا روايتهم من القبائل والأعراب البدو . وقد أظهروا في علمهم مهارة منقطعة النظير؛ إذ تحولوا يجمعون المادة الجاهلية جميعها. لكنهم كانوا قلّما يذكرون من حملوا عنهم هذا الشعر؛ فهم يغفلون أسانيدهم إلا قليلًا.

ولا نكاد نمضي في العصر العباسي حتى يكوّن هؤلاء الرواة مدرستين متقابلتين:

أ- **مدرسة في الكوفة:** وقد عرف أصحاب هذه المدرسة بعدم تشددهم في الرواية ومن ثم تضخمت رواياتهم ودخلها موضوع ومنتحل كثير، وكان زعيمها حمادا الّذي كان كثير الوضع، لا يوثق بما يرويه. وإذا كانت الكوفة أصيبت بأكبر الرواة الوضاعين فإنه يوجد في مقابل هؤلاء رواة ثقات على رأسهم المفضل الضبي، وعلى نهجه سار أبو عمرو الشيباني (ت213هـ) وابن الأعرابي (ت231هـ)، ومحمد بن حبيب (ت245هـ)، وثعلب (291هـ).

ب-**مدرسة البصرة:** وكان على رأس رواتها أبو عمرو بن العلاء الّذي كان أمينًا وموضع ثقة. ومن رواتها الثقات أيضا الأصمعي وهو المشهود له بسعة العلم والصدق والأمانة، وعلى نهجه سار كلّ من أبي زيد الأنصاري وعبيدة معمر بن المثنى. ومع أنّ البصرة عرفت بصدق رواتها إلاّ أنّ ظهر منهم من عرف بكذبه رغم سعة اطلاعه على حياة العرب في الجاهلية، ولعل أشهرهم في ذلك خلف الأحمر الّذي تصدَّى له الأصمعي مرارًا يتهمه بالوضع والنحل. وانتهت الرواية في البصرة إلى أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري (ت275هـ)، وإليه يرجع الفضل في جمع كثير من الدواوين الجاهلية، وهو يجمع بين الروايتين البصرية والكوفية

---

[4] - إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب- نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، ط 2، دار الشروق، عمان.